

مشاهدات وملاحظات :

تحية العلم ..

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى بك

المنشأ الثقافي لجامعة الدول العربية

—•••••—

كانت جزيرة « كورفو » منتهى المرحلة الثانية من مراحل سفرى من بغداد إلى المغرب الأقصى قبيل الحرب العالمية الأخيرة هبطت بنا الطائرة المائية المطار البحرى فى المضيق الذى يفصل الجزيرة من البر ، وقت العصر ؛ ثم نقلتنا السيارة من هناك إلى فندق فى المدينة لتقضى الليلة فيه ، على أن نعود فى فجر اليوم التالى إلى المطار لنستأنف السفر نهائياً .

والطريق الذى يمتد بين المطار والمدينة كان طويلاً ، يمر من بين مزارع جميلة وقرى صغيرة ؛ شاهدنا فيها عدداً غير قليل من الرجال والنساء والأطفال ، كلهم فى ملابس أنيقة كأنهم فى يوم عيد . وكلما اقتربنا من المدينة رأينا علام الزينة تزداد شيئاً فشيئاً ... إلى علمنا أن ذلك اليوم كان فعلاً من أيام السكرتال .

* * *

كنت قد زرت هذه الجزيرة الجميلة مراراً ؛ غير أن تلك الزيارات كانت قديمة العهد جداً ؛ لأنها كانت تتمثل ببداية حياتى التدريسية فى حاضرة « الأبير » - يانيا - التى كانت يومئذ مراكز ولاية تابعة للدولة العثمانية .

فكان من الطبيعى أن أشعر برغبة شديدة فى التجوال فى المدينة قبل حلول الليل ، بغية تجديد تلك الذكريات القديمة ومشاهدة الجزيرة - فى عهدها الحالى - بعد مرور هذه السنين الطويلة . فما كدت أعرف غرفتى وأضع فيها حقيبتى ، حتى خرجت من الفندق إلى الشوارع التى تعج بضجيج السكرتال . وأخذت أسير فى الطرق والميادين دون أن أسترشد بدليل ، غير مواكب التهرج نفسها .. إلى أن وصلت إلى الميدان الفسيح الذى يقع فى ظاهر المدينة ، حيث تلتقى شوارع مدينة فتمر منه جميع المراكب فى روحانها وغدوانها التسكورية .

وما لديهم من مال وسلاح ، وما عندهم من علم وفن ؛ وإنه يعرف كذلك ماله من حق ، وما عنده من كرامة ، وما فيه من إباء وما يحده به تاريخه من ثبات فى الأزمات ، وصبر فى الخطوب . فيقدم على الأهوال ذا كراً قول سلفه .

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً ويتقدم فيزبده الهول مضاء ، والنار صفاء ، منشداً :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت بنعمى وبؤس والحوادث تفعل فما لبت مناقاة صليبة ولا ذلتنا للذى ليس يجمل وإن رحلتها نفوساً كريمة نحمل مالا نستطيع فتحمل وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا

فصحت لنا الأعراض والناس هزل حسب الصهيونيين أن الأمم مال وربا ، وأشكال وألوان ، وهياكل وجدران ، وبني وعدوان ، وغفلوا عن حقيقة الإنسان الإنسان الكريم ، نفس كريمة ، وقلب شجاع ، وخلق أبى ، وما وراء ذلك صور وزخارف ، وخدع وأباطيل ، تذبذب إذا وقوت النار ، وتبوخ إذا همى الوطيس .

ألا ساء فال الأوغاد ، وخاب ظنهم حين زينت لهم أموالهم وزخارفهم أنهم للمرب أكفاء وأنداد . فلتبطل دعواهم الوقائع ، ولتكنذب ظنونهم الممارك .

ألا إنه إن محدى باطل الصهيونيين حق الرب ، وجرو شذاذ الآفاق على خير الأمم ، ولم يلقوا كفاء بنهم من ربح ، وجزاء عدوانهم من خزي .

فيا موت زرا إن الحياة ذميمة ويا نفس جدى إن دهرى هازل أبها الرب الأباة ! إنه يومه ما بعده ؛ فاسدعوا الأهوال بقلوب متفتحة ، وأيد مجتمعة ، وامضوا إلى الناية التى هى بكم أجدر ، وبتاريخكم أيق . إنكم تقاتلون حيث قاتل آباؤكم فى البر، وك وأجنادين وحطين ، وقد حطموا الباطل فى كبريائه ، وردوا البنى فى غلوائه ، فزلزلوا بهؤلاء البعثة الديار ، وردوا جند الصهيونيين بالخرى والدمار . واتركوها على التاريخ ماثرة إلى ماثر آباؤكم ، وسجلوها على الأيام مفخرة إلى مفاخر أسلافكم .

« ولا تنهوا ولا نمزنوا وأنتم الأعلون والله معكم . »

عبد الوهاب عزازم

(للكلام سلة)

والأصوات التي تصدر من تلك الألوف المؤلفة من الجماهير ، حتى في وسط مهرجانات السكر نفال ، وفي أصخب صفعات التهريج ؛ مع أن معظم أفراد المواكب كانوا قد أصبحوا شبه عسكريين من شدة الفرع الذي استولى على جوائهم من جهة ، ومن كثرة الكثوش التي ارتشفوها في مختلف الحانات من جهة أخرى . إن صوت البوق الذي يرافق إززال العلم كان قد حمل الجميع على التوقف بفتة ، كأنهم كلهم جنود في نكبة عسكرية يأتمرون بأوامر قائد يحترمونه كل الاحترام .

أكبرت عندئذ كل الإكبار قوة « التربية المدنية والوطنية » المتأصلة في نفوس هذا الشعب . . هذه التربية التي تحمل الناس على عدم التقصير في أداء واجب « الاحترام للعلم » حتى بين ضجيج مواكب التهريج ! .

* * *

تذكرت هذه الواقعة — بعد ذلك — عدة مرات ، في عدة مناسبات . . وكانت الأخيرة منها ، قبل بضعة أيام :

كنت أسير مساءً إلى « دار الرسالة » لزيارة صديقي الأستاذ أحمد حسن الزيات ؛ وكنت قد وصلت إلى رأس ميدان عابدين عند ما سمعت صوت بوق يدوي بنبرات متقطعة متساوقة . فالتفت حالاً إلى الشككات فرأيت العلم المصري الذي يرفرف فوق سارية البناية المرتفعة أخذ ينزل بخطوات بطيئة ، بصورة متساوقة مع نفخات البوق المتقطعة . . فوقفت هناك متولججاً نحو الشككات ، لأمتع البصر بتتبع سير العلم باهتمام .

ولكنني لاحظت بفتة أنني كنت الوحيد في هذا الموقف وهذا الاهتمام . . . وأما الذين كانوا يمرون مثلي في هذا الميدان ، فكانوا يواصلون سيرهم وكلامهم وعملهم . . كأنه لم يكن هناك شيء يستحق الالتفات : هنا جماعة من الأطفال يلعبون ، وهناك طائفة من النساء يتصايحن ؛ وفي كل الجهات عربات تمر ببطء ، وسيارات تسير بسرعة ؛ وعدد كبير من الناس يسيرون في اتجاهات مختلفة ، ولا أحد منهم يلتفت إلى الشككات ، أو يرفع البصر إلى سارية العلم القائمة فوقها . . كأن كل ذلك لا يهمه أبداً ولا يخص أحداً غير الجيش وحده . .

وتذكرت عندئذ — بكل تفصيل — ما كنت شاهدته

رأيت القوم — كهدي بهم سابقاً — يتلاون الجور ضجيجاً والميدان حركة ؛ ويتسابقون في الصحك والإضحاك بأقنعتهم الغربية ، وأزيائهم المعجبية ، ورقعاتهم المرعبة ، وأغانيتهم الخفيفة ، وأجوائهم المهرجة . وكان وصول كل موكب من المواكب إلى الميدان يستثير عاصفة من القهقهة والهتاف والصياح . . تندفع من حناجر آلاف المتفرجين المجتمهين هناك . وقفت مدة في زاوية من زوايا الميدان التي تطل على شوارع عديدة ، فتمكنت من مشاهدة المواكب الكثيرة ؛ وأخذت أتتبع حركات القوم بكل اهتمام .

واتفق أن وصل مرة أربعة مواكب غربية دفعة واحدة من شوارع مختلفة . فزاد نشاط الجميع زيادة هائلة . وصارت الجماعات التي تؤلف المواكب تندفع في المزمز والرقص والتهريج اندفاعاً جنونياً ؛ وأخذت جماهير المتفرجين تنرب في القهقهة إنغراباً عجيباً ، كأنهم أصيبوا بنوبات عصبية تهز جميع أبدانهم هزاً عنيفاً .

* * *

وفي الوقت الذي كان هذا المرح والمرج قد بلغنا الحد الأقصى ، وأخذت حواسي تهجز عن تتبع هذه الحركات المعجبية ، وعن تمييز هذه الأصوات الخليطة ، توقفت كل الحركات بفتة ، وانقطعت كل الأصوات فجأة . . وظننت — في بادئ الأمر — أنه حدث حادث مروع مجد الفرع في النفوس ، فآدى إلى هذا الوجوم العميق .

فأخذت أجيل بصري في كل الجهات ، لاستجلاء أسباب هذا التحول الفجائي إلى أن شاهدت في آخر الميدان في محل بعيد جداً ، علماً ينزل بالتدرج من فوق سارية كبيرة ؛ ولاحظت في الوقت نفسه صوت بوق — لم أتبه إليه قبلاً — وفهمت عندئذ كل شيء .

كان ذلك وقت الغروب ، وقد حان موعد إززال العلم من سارية الشككة العسكرية التي تقع في آخر الميدان ، والبوق كان يدوي إيداناً بذلك ، والناس قد توقفوا عن السير والحركة احتراماً لذلك اللطم .

وكان صوت هذا البوق قد قضى على كل الحركات